مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 395 - 414

تاريخ الإرسال: 2022/06/12 تاريخ القبول: 2023/03/26
تاريخ النشر: 2023/06/03

قراءة في أدب الرّحلة "رّحلة التجاني أنموذجا"

Reading in travel literature "tijani journey as model"

بوشايب أسماء علجية[1]، الطيب زريمش[2]
جامعة، الجزائر 2، (الجزائر) [1]asmaaldjia.bouchaib@univ-alger2.dz
جامعة ، الجزائر 2، (الجزائر) [2]Zerimechetayeb@gmail.com

الملخص:

تعتبر الرّحلات منابع ثرية لمختلف العلوم، فهي سجل حقيقي لمختلف العلوم ومظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور، وعلى هذا الأساس سلطت رّحلة التجاني الضوء على البعد الثقافي والحضاري لبلاد المغرب وإعطاء صورة متكاملة عن كل بلد يدخله من عادات وتقاليد ومعالم وأسلوب حياة أهلها، إضافة إلى ذكره أبرز الأعلام من فقهاء وشعراء وأدباء، فظهرت في رحلته قيمتان: علمية وتتجسد في المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، أما الأدبية فتتمثل في تنوع أساليب السرد القصصي الذي يرتفع إلى عالم الأدب.

الكلمات المفتاحية: الرّحلة، أدب الرّحلة، رّحلة التّجاني، قراءة في رّحلة التّجاني

Abstract:

The trips are considered rich sources of various sciences, as they are a true record of the various sciences, aspects of life, and the concepts of its people throughout the ages. He was mentioned by the most prominent scholars, poets and writers. Two values emerged in his journey: scientific and embodied in

geographical, historical and social knowledge, while literary is represented in the diversity of storytelling methods that rise to the world of literature.

Key words: The journey, the literature of the journey, the journey of Al-Tijani, Read on Tijani's Journey**.**

المؤلف المرسل: بوشايب أسماء علجية، الإيميل: asmaaldjia.bouchaib@univ-alger2.dz

1.مقدمة:

يعالج أدب الرّحلات عدة قضايا وتتوفر فيه مادة غنية، فهي سجل حقيقي لمختلف العلوم ومظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور. وبشكل عام يُلاحظ الرّحالة وهو يتجول في الأرض مظاهر مختلفة في الحياة، ومما لاشك فيه أنّ الرّحالين يختلفون في درجة وعيهم أي صدقهم وأمانتهم وتنوع فهمهم للأمور حسب الظروف المتغيرة التي يخضعون لها، ومهما بلغ هذا التغير يبقى للرّحلة قيمتان مهمتان: قيمة علمية، وقيمة أدبية، وعليه شغلت الرّحلة مكانة مهمة في الثقافة العربية منذ القديم، لذلك تنوعت أسبابها ومقاصدها العلمية، فنجد من الرّحالة من اهتم بوصف الأقاليم والبلدان وما حوّت من عجيب، وآخر يرحل بغرض السياحة والتجارة فيصطدم بالعجائب والغرائب لمختلف الشعوب ويصفها، ورّحلة التجاني تتصف بالتنوع والغنى الراجع إلى تنوع ثقافته الشخصية بين فقه وأدب وتاريخ ، فما علاقة بنية السرد الرّحلي بالأدب والأثنوغرافيا؟ وهل نجح النص الرّحلي في الجمع بين الأدب والأثنوغرافيا من خلال نقل تجربة سفر شخصية وفعلية؟

2. تعريف الرّحلة

1.2. الرّحلة لغة: جاء في معجم مقاييس اللّغة لابن فارس: "رحل، الرّاء والحاء واللاّم أصل واحد يدل على مضي في سفر، يقال: رَحَلَ، يرحل رّحلة [...] والرّحلة

والارتحال[...]، ورحّله، إذ أضغنه من مكانه"[1]، إذا الرّحلة لغويا هي حركة انتقال شخص من مكان إلي مكان آخر.

أما في معجم المحيط "ارتحل البعير: سار ومضى القوم عن المكان: انتقلوا، ترحّلوا والاسم: الرّحلة والرّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، بالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"[2]

2.2. الرّحلة اصطلاحا: الرّحلة عموما هي فعل الانتقال والسفر من مكان إلى مكان ويقوم الرّحالة بسرد أحداث سفره وكل ما شاهده بشرط أن تكون الرّحلة المكتوبة نتاج سفر حقيقي وفعلي، إذ لا يمكن كتابة رّحلة دون سفر وترحال، وفي ذات السياق عُرف أدب الرّحلة أنه "ذلك النثر الذي يصف رّحلة أو رحلات واقعية، قام بها رحال متميز، متوازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه"[3]

يعيد الرحّالة رسم جغرافية المكان بطابع ذاتي ، فالجغرافي له غاية علمية في كشف الكون وللرحّالة غاية ذاتية تحكمه فتجعله جغرافيا تارة وأدبيا تارة أخرى، وطبعا لا يفترض أن يكون كل جغرافي رحالة أو أن يكون كل رحالة جغرافيا، فالاجتهاد الشخصي المحرك الأول لكل من الرحلات والجغرافيا وتعددت أشكاله، فمن اجتهاد أديب لغوي واجتهاد جغرافي فلكي واجتهاد تاريخي وانساني ..."وقد تنطوي الكتابة في الرّحلة على خلط بين الحقيقة والجغرافية والحدث التاريخي والسلوك الاجتماعي وقد يتمادى الخلط في الكتابة التي تسجل حكاية الرّحلة، حتى تستغرق أحيانا في ذكر الغرائب والعجائب التي تستهوي الكائنات"[4]، كما "يتسم أدب الرحلات بسمات تاريخية وجغرافية لاهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم و أنماط عيشهم كما يتميز بمضمونه الفكري والاجتماعي وأسلوبه الأدبي المتميز غالبا عمّا سواه"[5]، أدت الرّحلة إلى الكشف الاجتماعي "فوقفت على أحوال كثير من الأمم والشعوب، وقد حاول الرحّالة

في بعض الأحيان تحليل وتفسير ذلك وربطه بالبناء الاجتماعي دون أهداف علمية محددة"[6] فجمع بين التاريخ والجغرافية والسياسة والعمران .

3. إشكالية تسمية أدب الرّحلة: أجمع المؤرخون وعلماء الجغرافيا والاقتصاد على قيمة الرّحلة وصدقها وهذا ما جعل الدارسين يطمئنون إليها ولا يجدون احراج في الاعتماد على ما ورد فيها من أخبار ومعلومات علمية وأدبية وتاريخية وجغرافية، ومن هنا ظهرت اشكالية تسميتها، فالرّحلة يخرج من جوفها علوم ومعارف متعددة فهي "نص غير واضح الحدود، يمكن أن يسكب فيه أي شيء: التوسيعات العلمية، وفهارس المتاحف، وحكايات الغرام، فهو يمكن أن يكون كتابا مليئا بالعلم، أو دراسة فنية أو بكل بساطة قصة حب أو كل ذلك معا"[7]، وعليه فإن الدارسين مازالوا يناقشون إشكالية تسمية فن الرّحلة ولم يتوصلوا إلى اتفاق بشأنها وهذا راجع إلى طبيعة الرّحلة لأنها فنّ تمازجه علوم ومعارف متنوعة كالتاريخ والأدب والسياسة والجغرافيا، إضافة إلى أنّ الرّحلة تنتشر "في نصوص عديدة سواء كانت شعرا أو نثرا، نصا دينيا أو دنيويا، ترجمة ذاتية أو غيرية، مذكرات أو انطباعات جغرافيين أو مغامرين، أو مرويات وخرافات ، فهارس وكتب طبقات، سير وأخبار طرائف شطار وتعاليم حكماء"[8].

وإذا تتبعنا مسار تطور الرّحلة نجد أن الدارسين لهذا الفن تعددت تسمياتهم ما يدل على صعوبة توحيد تسميتها وتجنيسها، "وقد ظلّ هذا التّنوع في النّعوت شاهدا على وضعيتين اثنين، الالتباس في التجنيس وغياب الوعي به، ثم التداخل بين الأشكال وغلبة بعض التسميات في عصر دون آخر"[9].

رغم تزاحم المعارف والعلوم في الرّحلة تبقى مرتبطة بحيز الأدب أكثر، لأنّها تتوفر على مقومات الأدب من فكر وعاطفة وأسلوب، وهذا ما دفع إلى اعتبار الرّحلة فنا واستنادا على هذا وظّف الدارسون تسميات عديدة للرّحلة نذكر:

1.3. الجغرافيا الوصفية: خلص الدّارسون إلى أنّ هناك علاقة تربط بين الرّحلة والجغرافيا "ففي مجال الكشف الجغرافي ووصف الأقاليم، لعبت الرّحلة دورا كبيرا فيما تضمنته تلك الأعمال من معرفة وبيان، أضحيا الأن تراثا تفخر بها الأمّة العربية الإسلامية"[10]، كما نجد أن الكثير من الدّارسين يعتبرون أن الرّحلة "تنتمي إلى الأدب الجغرافي تتداخل فيه المسالك بالمماليك ومعاجم البلدان بخرائط المدر والحضر"[11]، ورغم علاقة الجغرافيا بالرّحلة إلا أن هناك فَرق بين الجغرافي والرّحالة، فالجغرافي يتعامل مع المكان بحيادية تامة وموضوعية باعتبار أن الجغرافيين يقومون دائما "وصف البلاد التي دخلوها بدون أن يذكروا أحوالهم الخاصة، وتاريخ ورودهم وصدورهم، ولا شيئا مما حدث"[12]، بينما الرّحالة يتفاعل مع المكان إما بحميمية وإما بعدائية فنجده ذاتيا لأنه يعبر عن إحساسه بالمكان، فالرّحالة "لا يتردد في وصف إحساسه بالمكان عوض الاكتفاء بالوصف الموضوعي أو المحايد كما يفعل الجغرافي"[13] واعترف المهتمون بالجغرافيا الوصفية بالارتباط الموجود بين الرّحلة والجغرافيا الوصفية "وقد اتفق عديد من الباحثين على متانة هذا الارتباط بل هناك من يعتبر أن الرحلات تفرعت عن الجغرافيا الإسلامية "[14].

2.3. الأدب الجغرافي: استعمل هذا المصطلح للدلالة عن فن الرّحلة لأنّ الرّحالة يمزج بين الأسلوب الأدبي والهدف العلمي، فالرّحالة يربط في رحلته "بين الغاية الأدبية المجسدة في مظاهر المتخيل من حكايات وأساطير ومرويات مختلفة"[15]، ربط الدارسون الجغرافيا بالأدب، لأن الأولى تدل على الظواهر الطبيعية البشرية والثانية تدل على الكلام الفني الجميل الذي يحرك الوجدان والفكر، وهذا الربط يدل على اتجاهين أساسيين " "أدب" و "جغرافيا"، فهو من ناحية يولي وجهه شطر العلوم، أي العلوم الدقيقة، وذلك بالمعنى الذي نفهمه حاليا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا، ومن

ناحية أخرى فهو يولي وجهه شطر الأدب الفني، بالغا ببعض آثاره في هذا المجال".[16]

3.3. أدب الرّحلة: يعتبر هذا المصطلح أكثر تداولا عند الدّارسين والباحثين وأكثر مصطلح مرتبط بفن الرّحلة، لاتفاق المهتمين والدّارسين لاحتواء هذا الفنّ على صفة الأدبية.

فالمقصود بالأدب، الإنتاج الذي ينقل الواقع بطريقة فنية مكسوة بذات الرحالة وبثقافته وفكره ومعتقده ودينه، أما المقصود بالرّحلة تلك الوقائع والأفعال التي جرت فعلا على أرض الواقع "فأدب الرحلات إذًا هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرّحلة الواقعية، وهي الرّحلة التي يقوم بها رحّالة إلى بلد من بلاد العالم ويدون وصفا لها، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته، بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب"[17].

وبما أنّ الأدبية الصفة البارزة في الرّحلة، إذًا تصبح الذات المسيطر الأساسي في أدب الرّحلات، لذلك يعتبر "أدب الرّحلة هو مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، قد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[18].

يشترط على الرحالة أن يهوى السفر و يجد المتعة في شقائه و يسعى إلى خوض الرّحلة لشيء في نفسه وهذا ما يدفعه إلى تسجيل كل ما يلاحظه و يشاهده مازجا بين مختلف العلوم و المعارف مضيفا كل ما تعجبه نفسه وما يستغربه عقله وعليه تأتي الرّحلة "خلط بين الحقيقة الجغرافية، والحدث التاريخي، والسلوك الاجتماعي، وقد يتمادى الخلط في الكتابة، التي تسجل حكاية الرّحلة، حتى تستغرق أحيانا في ذكر الغرائب والعجائب التي تستهوي الكاتب"[19]، ففي أدب الرّحلات يجب على الرّحالة أن تكون رحلته واقعية موازنا بين الذات والرّحلة قادرا على التأثير في

المتلقي والتواصل معه، "وعليه يمكن أن نعتبر أدب الرّحلة بأنه ذلك النثر الذي يصف رّحلة واقعية ما، قام بها رحالة متمكن من لغته، متميز بأسلوبه وسعة خياله، يتمتع بقدرة على التأثير في المتلقي"[20].

في الأخير وإن تعددت تسمية الرّحلة بالجغرافيا الوصفية أو الأدب الجغرافي أو أدب الرّحلات فجميع المصطلحات التالية تدل على فن الرّحلة وجميعا فيها مسحة أدبية من خلال أسلوب كتابة الرّحلة وحضور المقومات الفنية والجمالية والانفعالات الذاتية ولو بشكل متفاوت و من هنا يمكننا القول عامة، إذا اختلفت العناصر الأدبية والذاتية أو نذرت، صُنف النّص على أنه جغرافيا وصفية، وإذا حاول الرّحال أن يوازن بين الموضوع والذات، فإنّ عمله يُصنف على أنّه أدب رحلة، إذًا يبقى مصطلح أدب الرّحلة الأقرب إلى فن الرّحلة رغم معارضة النقاد والباحثين، باعتبارها حكيًا عن الذات وعلاقته بالسفر والمزج بين الواقع والمتخيل وبين العادي والعجائبي.

4. أنواع الرّحلات:

1.4. الرّحلة العلمية: حيث يرتحل الطالب لطلب العلم، و"يتجاوز الحدود الإقليمية، ويلقى الترحيب حيث يحلّ طالبا للعلم "[21]، فالرّحلة لطلب العلم عادة معمول بها في بلاد المسلمين "فطالب العلم كثيرا ما يكون من كبار العلماء ويسافر لأخذ الإجازة أو لسماع من هو أعلم منه وقد كان الطلاب والعلماء يشدّون الرحال خصوصا لرواية الحديث أو لسماع كبار الأئمة من الفقهاء والمحدثين".[22]

2.4. الرّحلة الحجازية: وهي الرّحلة إلى الأماكن المقدسة للحج ولقد قصد الكثير من العلماء والأدباء البقاع المقدسة وقاموا بأداء فريضتهم وقد برع الكثير من الحجاج في وصف رحيلهم وإقامتهم وطرق سيرهم وطريقة أدائهم لفرائضهم وسجلوا كل ذلك في تقاييد جمعوها في كتاب اسمه "الرّحلة الحجازية"23

3.4. الرّحلة السياحية [الاستطلاعية]: هذا النوع من الرّحل يكون بدافع روح المغامرة وحب الاستطلاع والرغبة في دراسة أحوال الشعوب ومعرفتها24.

4.4. الرّحلة السفارية [الرسمية]: ارسال السلاطين المقربين لهم للقيام برّحلة إلى البلدان الأجنبية للتفاوض، وكان هؤلاء الرّحالة يعدّون تقريرا مفصلا يسردون ما حدث لهم، وكما كانوا يدونون ما شاهدوه في البلاد التي ذهبوا إليها، أو هي تلك الرّحلة التي يقتصر فيها مؤلفها على ذكر الرجال الذين لقيهم والشيوخ الذين قرأ عليهم والكتب التي درسها25.

5. <u>التعريف بالرّحلة والرّحالة:</u>

ولد أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أبي القاسم التجاني بمدينة تونس بين عامي 675/670هـ، درس الأدب والتاريخ والفقه والحديث والتفسير على يد والده، ومن ثم على يد جملة من علماء تونس، وترعرع في كنف الدولة الحفصية، وبرع في فنون الكتابة والإنشاء حتى فوّض إليه كبير شيوخ الموحدين الأمير أبو يحي زكرياء اللحياني مهمة الإشراف على رسائله واختاره ليكون رفيقه المقرب في رحلته التي بدأت في منتصف عام 706هـ وانتهت عام 708هـ[26]، غادر التجاني تونس رفقة الأمير أبي يحي زكرياء اللحياني في آخر جمادى الأولى سنة 708هـ، وراح يصف القرى والمنازل التي مرّ بها حتى وصل إلى رادس أولى محطات رحلته، ثم إلى سوسة فصفاقس، ومن ثم قابس التي غادرها إلى جزيرة جربة حيث بقي فيها خمسة وستين يوما مشاركا في حصار حصن قشتيل، ولما أخفق الجيش في إسقاطه عاد التجاني مع الركب أدراجهم إلى قابس، ومنها اتجهوا غربا إلى البلاد الجريدية لجباية الأموال من أهلها، فاجتازوا سبخة تاكمرت حتى وصلوا إلى مدينة توزر ليعودوا ثانية إلى قابس حيث انفصل الجيش عن الركب واتجه شمالا عائدا إلى تونس بقيادة أبي يعقوب، في حين تابع التجاني الرّحلة مع الأمير اللحياني

لقضاء فريضة الحج واختار الركب منطقة غمراسن للبقاء فيها في انتظار رجعة أبي يعقوب للانضمام إليهم، فامضوا فيها أربعة أشهر وثلاثة وعشرين يوما، ثم زنزور وأقاموا فيها مدة شهرين واثنين وعشرين يوما، فوصلهم خبر مقتل السلطان أبي يعقوب المريني وولده وعلموا أنّ ركب المشارقة سيتأخر ولا سبيل للحج في ذلك العام، فاتجه الركب إلى طرابلس للإقامة فيها حتى يحين موعد الحج في عام 708هـ، وبعد مضي ما يقرب من عام ونصف تابع الركب سيره شرقا لأداء فريضة الحج، وأُصيب التجاني بمرض منعه من إكمال الطريق فرجع إلى تونس واصفا المنازل والقرى والمواضع التي حلّ بها حتى وصل إلى مدينة المهدية ومنها سوسة ثم تونس، وهكذا كانت مدة غيابه عنها عامين وثمانية أشهر وأياما، ومن هنا يُلاحظ أنّ رّحلة التجاني لم تتعدى حدود المغرب والبلاد التونسية والطرابلسية، والمكان الضيق الذي تحرك فيه التجاني مع طول المدة الزمنية أعطته فرصة رسم صورة دقيقة عن بلاد المغرب ولم يكتف بوصف المدن والمعالم المشهورة بل تطرق إلى تصوير المظاهر العمرانية والطبيعية والقرى والآبار وعيون الماء إضافة لذكره الأخبار والحكايات والأبيات الشعرية .

6. قراءة في رّحلة التجاني:

تُعد الرّحلة من الفنون الأدبية التي لا تخضع لخيال الكاتب وتتسم بالواقعية كونها تسجيل ذاتي لمراحل انتقال الرّحالة بين الأمكنة والأزمنة المختلفة، فالرّحالة يسجل ما يراه بواقعية ووضوح دون تزييف للحقائق، إلا أنّ الرّحلة في كثير من جوانبها خرجت عن الإطار التقريري أو التسجيلي إلى الجانب السردي القصصي ، حيث وظّف الرّحالة في رحلاتهم جميع أشكال السرد، وأخذوا من الأدب عناصره المختلفة حتى أصبحت الرّحلة شكلا فنيا يزخر بالعناصر المتنوعة الأدبية وغير الأدبية ومن هذا المنطلق كان لابد الوقوف على رحلة التجاني وتسليط الضوء على جوانبها المختلفة.

تندرج رحلة التجاني في إطار الرّحلة السفارية كونها رحلة تكليف بأمر من ولي الأمر زكرياء بن اللحياني، ومن هنا رسم الرّحالة التّجاني من خلال رحلته جغرافيا المكان بطابع ذاتي يعكس ثقافته وهذا ما دفعه أن يكون تارة جغرافيا، وتارة أدبيا أو مؤرخا، ونتج عن هذا المزيج تداخل بين الحقيقة والجغرافيا والحدث التاريخي والسلوك الاجتماعي.

وما يميز رحلة التّجاني مساهمتها في رصد جغرافيا شمال افريقيا إضافة إلى حفظها جانب عظيم من الفكر التاريخي والأدبي والجغرافي، كما اهتم التّجاني بالشعر والنثر وذكر أخبار أهم القادة وأهم المؤلفات وحرصه إلى إسنادها إلى أصحابها.

6.1 القيمة الأدبية في الرّحلة:

يتصف أسلوب رّحلة التجاني بالتسلسل في الوصف ومزجه بالشعر لذلك يُلاحظ وجود شعر كثير لشعراء مشارقة وأندلسيين ومغاربة، وهذا ما جعل للرّحلة قيمة أكبر من الجانب الأدبي والتاريخي "كما تتميز رحلته بالاسترسال في الوصف الذي يتخلله شعر كثير من نظمه ومن نظم غيره، لذلك يجد قارئها شعرا غزيرا لشعراء مغاربة وأندلسيين ومشارقة، وهذا ما يعزز مكانة الرّحلة تاريخيا، إذ لم يكتف بوصف المشاهدات بل ضمنها معارفه التاريخية واللغوية كأن يشرح اسم مدينة ما أو نبتة مشهورة بها[27].

تتجلى الروح الأدبية في الرّحلة من خلال ما نشره من شعر له ولشعراء آخرين، ومن الرسائل المذكورة في الرّحلة تلك التي تبادلها مع أصدقائه المعبرة عن مدى ارتباطهم ببعض ومودتهم وشوقهم اتجاه بعض، حيث نجد فرحة التجاني بمراسلة الفقيه أبي القاسم بن محمد بن الملجوم وردّ عليه فرحا قائلا:

جنى الفؤاد على بعد فأحياه.....خلّ أبتْ غير حفظ العهد عُليَاهُ

أهدى إليّ سلامًا من لديه فقد....أهدى إليّ الأماني حين أهداه[28]

وفي موضع آخر تضمنت الرسائل الشعرية موضوع العتاب ضمن سياقات مختلفة، فنجد ابن شرين يعاتب التّجاني في إحدى مراسلاته له، وجاء العتاب من شدة شوقه ومحبته له وعدم ردّه على مراسلاته حيث قال:

دعني أسدّد من حديد ملامتي....سهما يفوت المرسلات من القِسي

هل أنت ذو علم بما أصبحتُ من....كأسِ الشّجون لأجل بعدك أحتسي[29]

وكان موضوع المدح بارزا في المراسلات الشعرية، فنجد التجاني يمدح مخدومه قائلا:

وصنيع الإله عندي سما عن....أن تقوم الشّفاهُ منه ببعضِ

مع مولى فاق البرّية طَوْلا.....نتعاطى المُنى فيعطي فيُرضي

أحرز المجد بين جود بعرض...مستباح الحِمَى وبُخْل بعرضِ

من أتاه يشكو يجدْب وبؤس....آب في عيشه بخصب وخفضِ

رائدا بأرض الجميم لديه.....واردا من جمامه غير بَرْض[30]

ويلاحظ من خلال هذه المرسلات تركيزهم في مدحهم على الجانب الأدبي وقدرتهم البلاغية، فتجد التجاني يمدح بلاغة الفقيه أبي محمّد عبد الله بن أحمد الأزدي العسيلي فيقول:

أأبا محمّدٍ الذي أخباره.....في الفضل ترويها الثّقاتُ مسَلسَلهْ

لله درُّكَ من وحيد بلاغةٍ.....ساقَ الكلامَ منّظما أورسّله

لا زال في الأفواه ذكركَ طيّبا..وإذا أحبَّ الله عبدا عسّله[31]

وبشكل عام يمكن القول أنّ الرسائل المذكورة في الرّحلة تتدرج ضمن باب الشعر الإخواني والوجداني كونها متبادلة مع أهل وأصدقاء الرحالة المقربين ووضّحت العلاقات الطيبة التي تجمعهم.

كما اكتست الرّحلة بمظاهر العجيب والغريب، وأثناء ذكر الرحالة لمعلومات تاريخية وجغرافية وأدبية نقل دون قصد صور وأخبار تضمنت العجيب، ومن أغرب ما ذكره الرّحالة التّجاني في رحلته عادة يقوم بها أهل قابس وتتمثل في بيع فضلاتهم، "وقد اشتهر عن أهل قابس ما اشتهر من بيع فضلاتهم، وهم يقرون بذلك ويدّعون بشدة احتياجهم إليها وأنّ النخيل في بلادهم لا يثمر إلا به"[32]

ومن عجائب العادات والتقاليد أيضا ما ذكره التّجاني في رحلته عن أهل الجريد "وقد اشتهر عنهم بيع فضلاتهم وهو يعيرون بذلك كما يعير أهل قابس ويعير هؤلاء أيضا بأكل لحوم الكلاب، ولم أر منهم مقرا بأكلها مستطيبا للحمها قديما ما هجى من هجى بأكل لحوم الكلاب"[33]

ومن الشخصيات العجيبة التي ذكرها الرحالة في رحلته إبراهيم فيقول: "في أوائل شهر ذي الحجة تواردت علينا وفود العرب المحاميد فكان فيمن رأيته منهم رجل أسود اللون اسمه إبراهيم بن المطرف ويُكنى أبا زرارة، ذكروا أنّه كان كاهنا من العرب وادّعوا صدقه فيما يتكهنه وحكوا عنه في ذلك عجائب فسألته عن ذلك فأقرّ به وادّعى أنّ له رئيا من الجن يأتيه فيخبره بما يكون في أشعار يخاطبه بها فاستثبته عن شيء من ذلك فذكر لي شعرا ادّعى أنّه أنشده إياه منذ أيام يحيل فيه على كائنة وصفها تكون في رجب الآتي"[34]

الرّحالة يسجل ما يراه بواقعية ووضوح دون تزييف للحقائق، إلا أنّ الرّحلة في كثير من جوانبها خرجت عن الإطار التقريري إلى الإطار السردي العجائبي، حيث وظّف الرّحالة التّجاني في رحلته جميع أشكال السرد، وأخذ من الأدب عناصره المختلفة حتى أصبحت الرّحلة شكلا فنيا.

قدّم التجاني رحلته بأسلوب سلس سهل متسلسل بعيد عن التعقيد، مكسو بالسجع والجناس والتشبيه خلال وصف كل ما شاهده عموما، ولا يلجأ إلى تزيين العبارة في

تعريف الشخصيات أو طرح قضايا وأحداث تاريخية، وبرز أسلوبه الشخصي في الرسائل التي أرسلها إلى أصحابه ووالده، وبزغت قدرته اللغوية وثقافته الأدبية من خلال شعره حيث وظف صور وتعابير تدل على اطلاعه على دواوين العرب.

6.2 القيم المعرفية في الرّحلة:

أما الجانب العلمي يتجلى أكثر من خلال وصفه الدقيق للأحداث والبحث عن الحقيقة قبل التدوين والسرد حيث يقول التجاني في رحلته مؤكدا ذلك "فهذا تقييد يشتمل على وصف ما شاهدته في هذه السفرة المباركة من البلاد مضمن ذكر أحوالها وصفاتها، وبيان طرقها ومسافاتها، والإشارة إلى مفتتحيها وبناتها، وأحوال من اشتملت عليه من أصناف العوالم، وما يتميز به كل بلد من الأثار والمعالم، وما تشوق إليه، ويتشوق إلى الاطلاع عليه، وقد ألبس ذلك من حلة النظم والنثر، مما ورد في هذه السفرة إلى أو صدر عن استفتاح حطاب أورده جواب"[35]وهنا ذكر التجاني بصريح العبارة أنه لم ينسى الجانب العلمي ووظفه إلى جانب التقييد والوصف والأدب والتأريخ، والمطّلع على الرّحلة يُلاحظ هيمنة البلاغة على أسلوب الرّحلة بجنب العلوم.

والذي يربط رّحلة التجاني بالأثنوجرافي، الصورة التي قدّمها التجاني عن الأماكن من خلال وصفه الدقيق للمدن وأسوارها والمساجد والحمامات والمدارس والعادات والتقاليد، ويقف الرّحالة مندهشا حائرا أمام معلم من معالم منطقة الجم معبرا عن تعجبه فيقول عنه واصفا "فنزلنا بالحصن المعروف بالجم وهو أعظم حصون افريقية وأشهرها على القدم وليس بافريقية بعد الحنايا التي بقرطاجنة بناء أضخم منه ولا أعجب، وشكله مستدير وارتفاعه في الهواء مائة ذراع"[36]

كما رسم الرّحالة خط واضح لسيره موضّحًا نقطة بداية الرّحلة ونقطة نهايتها ذاكرًا المدة التي استغرقها ومن صاحبه فيها وخلال هذا الخط وُفِقَ في رصد مظاهر

اجتماعية واقتصادية وجغرافية لكل منطقة مرّ بها وقدرته على إعطاء وصف دقيق لها مستطردا تاريخ المنطقة الواقف فيها وهذا يدل على ثقافته الواسعة.

واهتم أيضا التجاني بأصل السكان في بعض المناطق التي مرّ بها وأعطى معلومات كافية عن أصولهم مثل سكان توزر، كما اهتم أيضا بحركة السكان وتنقل الجماعات من مكان لآخر، فذكر سكان جزيرة باشو وهي بالقرب من تونس رحلوا بعد التنكيل الذي أصابهم من طرف يحي بن إسحاق الميورقي.

ويبدو من خلال سرده عن الأماكن التي زارها أنها معروفة بالنسبة له، ويتضح ذلك من خلال تعريفه لعلمائها ومشايخها وأعيانها وتاريخها، وهذا يوحي أنّ للمكان في رّحلة التجاني عدة مرجعيات منها الدينية والثقافية لذلك يلمس القارئ طابع الألفة بين الرّحالة والمكان وإذا رأى أمر يخالف ثقافته يسارع إلى وصفه مثل الوضوء "وقد شاهدت هذا منهم كثيرا، ويشترطون في وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من آرائهم الواهية"[37]

ومن هنا يمكن القول أنّ رّحلة التجاني مهمة كونها جمعت بين السرد والوصف والحوار والتأريخ والتحليل وتدوين وكتابة كل ما شاهده وسمعه، وعلى هذا الأساس قام بما يقوم به العلماء في البحوث الميدانية، كما إنّه استوفى شروط الأنثروبولوجيا التي تتمثل في "معرفة كلية وشمولية للإنسان في علاقته بامتداداته التاريخية ومحيطه الجغرافي"[38]، وهكذا قدّم التجاني معلومات وافية من عدة جوانب عن الأماكن التي زارها لذلك فقيمة الرّحلة لا يمكن وصفها إلا بما وصفها محققها أنها "مرآة صقيلة صافية تتمثل فيها صورة البلاد التونسية من حيث عناصر السكان وهيئتهم الاجتماعية والاقتصادية علاوة على تفصيل جغرافية القطر وتاريخه وتراجم مشاهير أبنائه مع التعرض للنباتات الخاصة بكل جهة، وهو مقدار الإفادات قلما اجتمع في رّحلة واحدة[39]

أعطت الرّحلة للتّجاني فرصة إبرازه عدة جوانب في شخصيته الأدبية والعلمية والعملية، حيث وظف الوصف والتحليل والمقارنة، وهذه الأدوات ساهمت في إبراز وظيفتين تتمثل الأولى في الوظيفة الجمالية التي ظهرت من خلالها عناصر أدبية، والثانية علمية تعليمية من خلال تقديمه لعدة معلومات في التاريخ والجغرافيا والعمران والعادات عن الأماكن التي مرّ بها، وهذه القيمة أعطت للرّحلة مكانة رفيعة ومرتبة مهمة بحكم أنّ منطقة المغرب العربي من المناطق التي تحتاج إلى مصادر موثوقة لتكون سندا ومرجعا يعود إليه الدارسين والمؤرخين.

يكتشف قارئ رّحلة التجاني أنماط حياة وذهنية سكان شمال إفريقيا وطريقة عيشهم وأحوالهم الاقتصادية والفكرية وهذا يوصل إلى العلاقة الوطيدة بين الوصف والسَرد وبين الأنثولوجيا المهتمة بدراسة الأعراق وما فيها وثقافتها.

عموما "جاب الرّحالة العرب كل أرجاء المعمورة في زمانهم ودوّنوا ملامحها الانسانية والاقتصادية والجغرافية والثقافية وخدموا العلم والفتوحات الإسلامية، وحفزوا الخيال وأعانوا الحكام وفتحوا أمام الدّارسين أفاقا جمة"[40]، كما حرص الرّحالون على تدوين ما شاهدوه والمعاناة التي لاقوها وساهموا في توفير معارف تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية ذات قيمة عظيمة.

وتبدأ أغلب الرّحلات في العموم بمقدمة ولكن عددا منها أهملها وتفتتح أغلب الرّحلات بمقدمات التحميد والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم والتشهد والتطرق للحديث عن ظروف الرّحلة والأسباب التي أدّت إلى القيام بها ودوافع تدوينها إضافة إلى المنهج الذي اتبعه في تدوينها.

كما اجتمع الرّحالة جميعهم على وصف الطرق التي سلكوها من بداية الرّحلة إلى نهايتها وأفاضوا في وصف المخاطر والمصاعب والأهوال التي لقوها أثناء الرّحلة إضافة إلى ذكر رفاق ووسيلة السفر، مصورين كل أنواع الطبيعة التي مرّوا بها

تصويرا متفاوتا بحسب حِسهم الجمالي ورغبتهم العلمية ملتفتين في ذات الوقت إلى الظواهر المناخية وثروات المناطق التي قاموا بزيارتها كما اهتموا بالأمور الاجتماعية حيث لم تقتصر عنايتهم بفئة معينة من الناس دون الأخرى، حيث وجهوا اهتماماتهم إلى طباع الشعوب وأخلاقهم وعاداتهم، كما تحدثوا عن النواحي العلمية والدينية والعمرانية، كما تحدثوا عن النظم الاقتصادية والمراكز التجارية والتبادل التجاري والصناعية والزراعة وتربية الحيوانات ومنتجات البلاد والأسواق والمتاجر والسلع والضرائب...ولعلّ النواة الأولى التي تمخض عنها أدب الرّحلة هي تلك الحكايات والأخبار التي كان يرويها المسافرون والتجار العائدون إلى أوطانهم، وهي بقايا ما علق في أذهانهم، حتى إذا ما تعددت هذه الروايات والأخبار تكوّن منها أدب شفوي تتناقله الأفواه بزيادة أو نقص، ولما كانت هذه الروايات والأخبار ذات قيمة وفائدة وإتيان بالجديد من المعلومات عبر البلاد المشاهدة، فقد اهتم البعض بجمعها وتدوينها وقد أولى الولاة والحكام اهتماما بهذا الأدب فكانت هناك رحلات رسمية وبعثات حكومية وكثيرا ما جاءت العبارات الوصفية موجزة بحيث شوهت الصورة وبعثت على الملّل وأخذ هذا النوع من الأدب في انحدار شديد إلى أن وصل لقرن الحادي عشر للهجرة، وبرز بشكل واضح عند العياشي حيث لم يبق وصف المدن والقرى والتقاليد والعادات إلا أمرا ثانويا بالنسبة إلى موضوع العلماء والمتصوفين والوقوف أمام الأماكن المقدسة وكانت الرّحلة هي الأسلوب الميداني الذي اعتمد عليه الجغرافيون في مختلف العصور في عمليات الكشف الجغرافي والتأليف العلمي، وباستخدامهم لهذا الأسلوب أضافوا معلومات جديدة وصححوا معلومات كانت شائعة في المؤلفات التي كانوا يرجعون إليها[41]

7. الخاتمة

رحلة التجاني كلها خير وبركة على الأدب والتاريخ باعتبار أنّه سجل فيها أخبار رحلته ومشاهداته وانطباعاته خلال تدوينه لرحلته وأصبحت الرّحلة عبارة عن كتاب في الأدب والتاريخ والجغرافيا، كما وصف المجتمع الذي عايشه بأسلوب واضح وعبارة أنيقة، لدرجة يمكن للقارئ تصور في ذهنه الأشياء التي تحدث عنها كأنّه يراها، وما يزيد الرّحلة أهمية المدة الكبيرة التي قضاها في طرابلس الغرب حوالي سنة ونصف مكنته من التعرف إلى المدينة وأهلها وعلمائها ومناهجها لذلك أسهب في الحديث عليها في الرّحلة.

رحلة التجاني نصا يقع على الحافة بين ماهو تاريخي وجغرافي وما هو أدبي وما هو مقدس، فهي نص لغوي سردي ذو صبغة أدبية من جهة وضرب من الاعتقاد الديني من جهة وتأريخ سيري اجتماعي من جهة أخرى، ولكن يمكن القول أنّ انتمائها إلى الأدب هو أقوى هذه الانتماءات كونه ضَمّن الرّحلة برسائل شعرية تدخل باب الشعر الإخواني والوجداني كونها متبادلة مع الأهل والأصدقاء المقربين، ووجود جوانب مرتبطة بالعجائب والغرائب والأساطير التي لا يصدقها عقل، فهو الأصل الذي من أجله حاز النص الرّحلي صفة الأدبية، وهو الذي حقق لنص الرّحلة تميزه عن باقي النصوص.

لرّحلة التجاني بعدان، يتمثل البعد الأول في الحركة الفعلية للسفر وتجربة قصدية لها أهداف مسبقة وتخطيط، والبعد الثاني يتمثل في تدوين هذا التنقل في خطاب لغوي، وأدبية الرّحلة تتحقق من خلال خطابها اللغوي إضافة إلى تداخل عدة أشكال تعبيرية.

يحتوي أدب الرّحلة عموما على مجموعة من القصص والأحداث التي تساهم في نقل صور تاريخية للقراء، واصفا طبيعة ومراحل الرّحلة في ذات الوقت.

لم تبخل رّحلة التجاني على القارئ بتقديم معلومات وافية عن الأماكن التي زارها وتسليط الضوء عن الفترات الزمنية التي أُنشئت فيها، كما ساهمت الرّحلة في إبراز جوانب متعددة من شخصية صاحب الرّحلة الأدبية والعلمية والعملية كونه مزدوج الثقافة موظفا ما يلزم من وصف وتحليل ومقارنة، فبزغت وظيفتان في الرّحلة: وظيفة جمالية من خلال توفرها على عناصر أدبية وأخرى تعليمية لغناها بمعلومات ومعارف تاريخية وجغرافية عن الأماكن التي قصدها، خصوصا أنّ منطقة المغرب العربي من أكثر المناطق الإسلامية المفتقرة لمصادر موثوقة يمكن الاعتماد عليها من طرف المؤرخ والدارس.

8. المراجع

1. أبي الحسن بن فارس زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط، عبد السلام محمد هارون، ج2، ط2، [مادة رحل]، دار الفكر، سوريا، 1979، ص497.
2. د نهلة شقران، خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع هجري، الآن ناشرون وموزعون، ط1، 2015، ص20.
3. محمد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005، ص1005
4. كريزتسكي فلاديمير، خطاب الرّحلة ومعنى الغيرية، أعمال ندوة: الرواية والسفر، تقاطعات التخييلي والتسجيلي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، المغرب، ص15.
5. نهلة شقران، خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع هجري، مرجع سابق، ص15.
6. المرجع نفسه، ص20.
7. كراتشكوفسكي أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة ايغور بلياف، طبعة 1957، ص18.
8. صلاح الدين الشامي، الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط2، 1999، ص148.

9. ناصر عبد الرزاق، الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، دار النشر للجامعات، ص40.
10. فؤاد قنديل، أدب الرّحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ص6.
11. جريفيت وتايلور وآخرون، الجغرافيا في القرن العشرين، ترجمة محمد السيد غلاب ومحمد مرسي، القاهرة، 1974، ط2، ص7.
12. حسني محمد حسين، أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1973، ص07.
13. حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، يونيو1989، ص95.
14. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات مصر، د.ط، د.ت، نقولا زيادة الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1980، ص36.
15. عبد الرحيم مودن، الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، ص61.
16. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرّحلة في الأدب العربي نهاية القرن الرابع للهجرة، أدب الرحلات، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، 1415هـ/1995، ط1، ص35.
17. أنجيل بطرس، الرحلات في الأدب الانجليزي، مجلة الهلال، القاهرة، ع 7، سنة 1975، ص52.
18. عبد الرحيم مودن، الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 41.
19. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، تركيا، د ت، ج2، ص854، مادة[عجب].
20. حيران مسعود، الرائد، دار العلم، بيروت، ط2، 1967، ص1005.
21. جبور الدويهي، الرّحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى المشرق نهاية القرن 18، مجلة الفكر العربي، العدد 23 أبريل/ يونيو 1983، ص58.
22. عبد الرحيم مودن، الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص26.
23. شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل 2002، ص44.

24. عبد الرحيم مودن، أدبية الرّحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1996، ص59.
25. المرجع نفسه، ص12.
26. أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رّحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، د/ط، 1981م، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب
27. ترشاق سعاد، الرحلات المغربية القديمة بين الأدب والنقد الإثنوغرافي "رّحلة التجاني أنموذجا"، مجلة التراث، العدد31، المجلد الأول، أوت 2019، ص6.
28. رحلة التجاني، مرجع سابق، ص301
29. مرجع نفسه، ص166
30. مرجع نفسه، ص231
31. مرجع نفسه، ص236
32. مرجع نفسه، ص259
33. مرجع نفسه، ص160
34. مرجع نفسه، ص197
35. مرجع نفسه، ص14.
36. مرجع نفسه، ص57
37. المرجع نفسه، ص.56
38. مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص22.
39. المرجع نفسه، ص22.
40. خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات، أشهر أعلام العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، لبنان، 2011، ص9.
41. المرجع نفسه، ص178.